

الاغتراب كنقيض لتحقيق الذات

الدكتور عبد الكريم حسن

أستاذ مساعد في

كلية الآداب - جامعة تشرين

بشير ناصر

طالب دراسات عليا في

كلية الآداب - جامعة تشرين

بعد أن أحصي اثنين و سبعين معنى من معاني الاغتراب التي ورد استخدامها في الكتب التي تيسرت لي قراءتها، أشير الى أن تلك الاستخدامات الكثيرة لا تفيدنا في شيء، ذلك أن معرفة المعاني لا تكون في تعدادها المعجمي، بل ان من مستلزمات المعرفة الموضوعية معرفة البواعث التي آلت الى ذلك، أعني الاغتراب .

ولما كانت معرفة الاغتراب، بوصفه تجريدا لا تتم "في ذاته" : مما هو، فحسب بل مما ليس هو: من جوهر الشخصية الانسانية ، فقد خلصت الى أن أقدم تصورا خاصا أو طر فيه مفهوم الاغتراب، مستفيدا بذلك من مختلف وجهات النظر الفلسفية، ليس من قبيل الاصطفاثية-التلفيقية Eclectisme في محاولة منا لمقاربة ما يخص واقعنا العربي فمن خلال معرفة الشخصية: الذات المحققة بمكوناتها الواقعية نتعرف على واقعية الاغتراب ، بغية تجاوزه

وانني لأحسب بهذا التصور أنني رددت زعم "ر . شاخت" الذي يفضي الى أنه من غير الممكن أن يكون هناك تصور شامل لمعنى الاغتراب . وهو تصور - على لغة الجاحظ - "حرما فيه من التوفيق(ربما) و لكن لم نحر من الاجتهاد

ان رحلة البحث في عوالم الاغتراب

هي نفي بمعنى من المعاني، و ضياع، اذ ان عوالم متشعبة المعالم، ووجوده، في عصرنا الحاضر، يشمل الوجود . و مفهوم الاغتراب بهذا، لا ينقاد للتعرف بيسر و سهولة .

ومما يزيد في ضبابية هذه المقولة كثرة القائلين في رحابها على اختلاف مشاربهم الثقافية الطبقية و مواقفهم الايديولوجية اذ اننا نحصل على ألفاظ عديدة يشير سياق استخدامها على أنها "اغتراب" من قبيل (الضياع) القلق و الاضطراب و التردد

/ الاستلاب و الاستغلال/ الاستبداد و القهر / الانعزالية و الانطواء/ الحرمان و الفقر / بمعنى" الحاجة و خلق الحاجات" / الاحتقار

والاهانة و التذليل/ استبدال الأخاسيس والمشاعر "الآلية و التشيوية" والصنمية /التبعية و الانحاء و التخلف" فقدان الهوية" / التهجير و النفي/ المحاصرة و الملاحقة/ التنكيل و التعذيب و الاختناق/ الفرع و الرعب / الارتياح و الشك/ العجز أو التعجز و عدم الفاعلية/ الاحساس بالغثيان و الخواء و اللامعنى/ الاكراه و الاملاء/ الاحباط و التشاؤم/ الزهد و التصوف/ الاخفاق و الانكسار و الخيبة/ الآنا المتفخمة /التذبذب و عدم الاشتماء / التمزق و الاجتزاء/ الهروب و ردود الأفعال الانفعالية / التلقائية و السلبية

مختلف الاضطرابات العقلية " فقد ان الوعي و نوبات الصرع .. الخ " والنفسية : " المازوخية و الشعور بالدونية السادية و جنون العظمة " / و فقدان التوازن، بمعنى عدم توكيد الذات، أو توكيدها بسبل، ملتوية مزيفة ويمكننا أن نمضي طويلا في تتبع الألفاظ التي تنفوي تحت مدلول الاغتراب الا أن ذلك لا جدوى منه، فهي، ان لم تكن جانباً من جوانبه، لا تعدو أن تكون بمنزلة الصفات كسمى واحد و السير في ذكر الصفات و تعدادها بحث معجمي أكثر منه استقراء علميا لحركية الواقع التي تنتج الاغتراب . و الى جانب هذا، ليس في التكرار التعدد للمعاني ما يكفل معرفة بتلك المعاني .. ان من مستلزمات المعرفة الموضوعية أن نتناول مختلف الدلالات و المعطيات في سياق منشئتها و نتائجها، كعلة و معلول، و بمنهج جدلي أى في سياقها، من حيث هي عملية لها جذورها الواقعية، و ليس الأمر فـي ان نعالج الأفكار بالافكار و المفاهيم بالمفاهيم، على الطريقة المثالية .

وفي الوقت الذي نجد فيه ان تعداد المعاني المرادفة، أو المرادفات المستخدمة لمفهوم الاغتراب على أنه مسيرة لا تنتهي، كذلك هو شأن تنساول لمعانيه من خلال الفلسفات النظرية و الفلاسفة فاذا ما استبرنا هذه الفلسفات الايديولوجية أو تلك النظرات التي تناولت " الاغتراب " ، اتضح لنا أنها تذهب في منحنيين : اما أن تخضع الاغتراب من حيث هو مصطلح، لما يتلاءم و تكاملية مذهبها، وبالمصلة فالاخضاع اكراه و تضيق لشمولية المفهوم، واما أن تكون النظرات الفلسفية خاضعة للاصطلاح و ناتجة عنه

كالوجودية على سبيل المثال .. فهي بهذا فلسفة مغترية مجزأة و مشوهة . فضلا عن كون هذه المذاهب على تباينها، متعددة بما لا يترك مجالا للشك في ان تناولها ضرب من اللاجدوى .

و أخيرا، اذا كان مصطلح الاغتراب، بهذه الشمولية و الاتساع و الاختلاف في استخدامه على اختلاف جوانب الحياة كافة، فهل نصدّ عن عرض معانيه، اذ لا يوجد هناك معنى عام واحد للاغتراب .

في واقع الأمر، هذا السؤال سؤال أقرب الى الاختيار، وهو اختيار اغترابي أصلا، لأن الاغتراب هو الحياة المعاصرة في معظم مكوناتها و خاصة، في العالم العربي، والتي لا يمكن القبض على كامل جوانبها المعبرة عن الاغتراب لهذا قد ارتأينا أن نبقي مخلصين لقناعاتنا ازاء هذا الكم الهائل من الاستخدامات الفلسفية و اللغوية لمصطلح الاغتراب أعني، الانطلاق من ماهية الانسان الكامل وعلاقة التفاعل و التوازن بين الشئاعيات المتقابلة، والتي تتكفل بمجموعها وحدة العالم، من قبيل: الذات و الموضوع الانسان و الاخرين، الانسان و البيئة وعلاقة التوازن بين الانسان و نفسه يقينا منا، أن ذلك هو الأقدر على الغوص في تفهم ظاهرة الاغتراب و سنحاول ألا نفعل أهم ما جاءت بسببه الفلسفات الكبرى، بما يكفل خلق رؤية مقاربة بينها بصورة عامة ليس على منهج الاصطفائية - التوفيقية Eclectisme وانما هي محاولة لما نراه أقرب منالا فيما يخص واقعنا العربي المعاصر . وتلك هي بغيتنا الاولى في هذا البحث . وان خامرني احساس مسبق بأن ايفاء الفلسفات حقها أمر

خارج عن مقدور أي باحث متفرد وذلك لكبر المسألة وقصر العمر كما يقـال من المعاني التي يمكن أن نوّطر فيها مفهوم الاغتراب : ١- الاغتراب كنقيض للحريّة ، ٢- الاغتراب كنقيض للسعادة ولكن من المتعذر أن ندرك حقيقة الحرية أو السعادة... إلا من خلال التأكيد الفعلي للماهية الانسانية لانسانية الانسان. وفي الوقت نفسه لانزع بأننا أحصينا مختلف معاني الاغتراب اذ ان ذلك غير ممكن، بحال من الاحوال فليس الاغتراب صفة مجردة كما ان هذه القيم المناقضة ليست صفات مجردة أو مطلقة.. وتلك هي طبيعة الحياة، قانونها الاول، هو الحركة والتجادل.. فهذه القيم ناجحة عن حركية الحياة، وبالأدق عن حركية انتاج المجتمع ككل، ومتجادلة معها بصورة دائمة فالحرية، مثلاً هي تحقيق فعلي للذات الانسانية (بالمعنى الدقيق لكلمة الذات) الشخصية. الانسانية بمكوناتها الواقعية فمن خلال هذه الذات المشخصة بعملية العمل الاجتماعية، نستطيع أن ننظر الى مختلف القيم الجوهرية المناقضة للاغتراب أو المعاني التي تنضوي تحت دلالتها ونبقى مع مثالنا الايضاحي " الحرية " لنجد أن فقدانها لدى المرء أو مصادرتها بالقمع والملاحقات والتعذيب ينتهي الأمر بما الى ١- الانطواء والانفصال عن المشاركة في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه. واما الى : ٢- الانضواء والتسليم والتخلي عن تطلّعاته وأهدافه، والتنازل عن ابداعاته الحرة.. وفي كل من الانضواء والانطواء لنزع لإنسانية الانسان، من حيث هو فاعلية واعية تأبى ان تبقى على نسق واحد. ذلك أن الانسان هو الحياة. فكما أن الحياة لاتعرف الجمود

والتنسيق، هو الانسان في تجددو ابداع أو هكذا يفترض أن يكون وهذا الدلالة الاغتراب ليسا منفصلين فيما بينهما، (فالانضواء ينتهي الى الانطواء) أو الانضواء يعني الانطواء (بمعنى التقيد والانعزال عن الفاعلية الفعلية) وهما، أيضاً، غير منفصلين عن الدلالات الاخرى، التي تخلط القيم الأصلية بقيم مزيفة وتستبدل بالجوهـر الادواتي بالمال مثلاً، بدلاً من أن يكون وسيلة يصبح السيد المتحكم، وما يترتب على ذلك من ممارسات لإنسانية .

ان المسألة الأهم ، التي يقتضي بنا أن نبحثها في مفهوم الاغتراب، قوامها : ماهو جوهر التلاقي والتمايز ما بين الانسان - الانساني (النوعي) وجوده الفردي، انطلقنا من كلية الانسان (بما تتضمنه من مؤثرات و بواعث ومكونات ومن تلك الحقيقة وحدها، يتعين علينا انما أن نحّد " الاغتراب " وليس شمة مدخل آخر يزعمي يمكننا من الاحاطة بمعانيه كتمهيد لتجاوزه . لهذا فان افتقاد الانسان لأي من مكوناته الأساسية ، يعني أن شمة خلافاً في كلية الانسان وتمايمته Entirety أعني الذات الفعلية المتناغمة في علاقة الداخل بالخارج / الأنـا بالعالم (الطبيعي والاجتماعي) ، فمن خلال كلية الانسان، بصفاتها (مجملة العلاقات الاجتماعية) ، اقتضي الأمر انما في التوجه الى الداخلية ، تصقله .. تصارعه .. أو تكبله عن الفاعلية وتشعره بالعجز عن التواصل من هذا المنطلق، نتبين أن الاستياء والعجز هما ضياع لفاعلية الانسان، كما أن المحاصرات الجانقة شلل لالبداع الحر، ونفهم أن الأنانية تعبير عن اغتراب الفرد عن النوع وعن التعامل الانساني مع المجتمع والاخرين، وبالمقابل اغتراب عن الذات وانعدام تحقيق شخصيته فضلاً عن الأشكال الأخرى، السالفة الذكر، من قبيل: النزعة الاستهلاكية وضياع فوائدها العمل

وبالتالي تغريب الانسان عن ذاته ، و الاحساس
بضالته وهامشيته ... الخ
وعلى غرار ذلك ، غير مرمرة أن مختلف المكونات
الكلية هي كلية الانسان و انسانيته ، وهي
مترابطة فيما بينها بعلاقة جدلية خلاقة
ومتوازنة . وليست الحرية و السعادة هما
المكونان الوحيدان ، و ان كانا نموذجين
أساسيين ، و انما تكمن في كل تجليات النشاط
الانساني ، وفي علاقات الانتاج الاجتماعية
و الحياتية عموما ، أو فيما يفتت انسانيته
من حيث هو انسان ينشد الكمال بفاعلية واعية
كما يكمن جوهر الاغتراب في كل قسر خارجي يعمل
على المرء ، يستلبه (ماديا و روحيا) ويفقده
الاحساس بالأم و بجدوى الحياة و الانسانية .
ان القول بالذات المحققة ، (بالشخصية)
يتضمن الفاعلية الحرة و القدرة على اتخاذ
قرار اتمستقلة وتحمل المسؤولية ازاء ذلك
كما يعني القول بالذات المحققة قبلاتكافؤ
العلاقة الديالكتيكية . وتوازنها بين الذات
و الاخرين ، الذات و العالم الموضوعي و مثل هذه
العلاقة لا تنتم للانسان بصورة سليمة ، الا في سياق
النشاط الانساني المهدف بغايات ذاتية جماعية
وعلى غرار ما ارتضيناه في معرفة الاغتراب أي
من خلال معرفة ما ليس اغترابا من قبيل " الحرية "
و " السعادة) نجد أنفسنا بحاجة الى الامرداته
في تجسيد معنى قولنا " الذات المحققة " ذلك أن
معرفة التجريد ، في كل مرة ، ضربا من الضبابية
فلنقل لتجاوز ذلك ، ان الذات المحققة على خلاف
١- الأنانية التي هي أبعد ما تكون عن الشخصية
الانسانية ، و تتلخص هذه النزعة الانفرادية
المنتعشة في رهن العصبية ، بتصور مثالي
للفرد المجرد - المتعالي على المجتمع و الاخرين
كما أن العالم المحيط به هورين بتصورات
الفرد ١١٠٠ و هذا خرق واضح لحقيقة الواقع
بدلالة كيفية تطبيق تلك التصورات على الواقع
مما يؤدي بالفرد (المتفرد الواهم) الى

الى انتهاج تصرفات مرضية (كالساد يسة
و المازوخية و جنون العظمة ...) و من خلال تحليل
هذه الميول ، يتبين ، بايجاز ، أنها ناجمة
أساسا عن فقدان المعادلة الديالكتيكية
المتوازنة بين الأناني و عالمه و فضلا عن ذلك
" ليست الأنانية متطابقة مع عكسها . ان الأنانية
نوع من الشره ، وهي مثل كل الشره ، تحتوي
على زعزعة نتيجة عدم اشباع حقيقي اطلاقا " (١)
و الاناني في كل هذا دائم القلق ، " ليس لديه
الأمان الباطني " (٢) شره لا يصل ، اطلاقا ، الى
اشباع ، كما أنه مأخوذ بالخوف " من أن يكون
قد نسي شيئا و أنه محروم من شيء . انه ممثلي
بحسد حارق تجاه كل شخص لديه أكثر " (٢) - كما
يقول أريك فروم - " و اذا لاحظنا بدقة أشد
و خاصة الديناميات اللا شعورية ، سنجد أن هذا
النوع من الأشخاص ليس معروفابنفسه أساسا
بل هو يكره نفسه حتى الاعماق " (٣) و مؤدي
ذلك أن الأناني بسبب انغلاقه عن العالم
الخارجي ، و عن الذوات الأخرى التي هي امتداد
لذاته ، لشخصيته ... فانه ينزوي خائبا
متوجسا يستبد به الضجرو " الحسد المسكين "
على حد تعبير ماركس (٤) . مثلما يكون
في انعزاله عن سياق العمل الجماعي : عن
أبعاده الحقيقية - الكلية ، أو عن كل ما
يشري تجربته الروحية و عالمه الداخلي ...

(١) - (٢) - أريك فروم ، " الخوف من الحرية

ص ٩٨ وما بعدها

(٢) - (٣) - أريك فروم ، " الخوف من الحرية " ص ٩٨

وما بعدها

(٤) - كارل ماركس ، " مخطوطات ١٨٤٤ "

يعيش ،بتعاليه ،مجرد حياة بيولوجية كأي كائن آخر ،لامجال للجانب الانساني في عالمه . فحين تنقطع الصلة الحميمية بين الداخل والخارج ،أو حين يستغنى عن العالم الخارجي تنحصر الحياة الداخلية الى أخطاء وأمراض .

الأنانية ،اذن ،هي الاحساس بالعجز عن تحقيق الذات - الشخصية بصورة فعلية ، هي اهتمام بالجزء من مجمل أجزاء الكل وبتر لجوهر الجزء ذاته عن جذوره ووجوده . ضياع وتشتت بسبب من افتقاد "النفاجي" القدرة على التفاعل الدينامي الخصب مع العالم الموضوعي ، اذ انه يقيم لنفسه عالما من التخييلات المرضية المتطرفة . والتي لاوجود لها الا في "يوتوبياته" الراهمة والتي يصدمه الواقع بنقيضها . ان الانسان ، بسبب أنانيته ، مسؤول وحده عن سجنه الخاص (٥) وبهذا الانسلاخ يكون مغتربا عن ماهيته الفعلية ، من حيث الانفصال الحاصل بينه وبين نوعه ، كموجود انساني - اجتماعي . وحتى بينه وبين الطبيعة ، كامتداد لعضوي له ، من جراء الاستغلال اللاأخلاقي للطبيعة وفسادها . فالأنانية هي احدى أخطر آثار التوجه الاستهلاكي ، الذي فرزه نظام الرأسمالية المعاصرة - والذي تتبعه البلدان التي تدور في فلكها . وبنتيجة هذا الاستهلاك الأوحده سيؤول الأمر أخيرا الى أن يستهلك ذاته . "فالبرجوازية تنتج حفاري قبورها" . وبهذا كله ، ليس الانسان بالأنانية هو "أناه" الفعلية : ذاته المحققة ، بل يكون بها "إناء" لنقاط الضعف والهوان ، واغترابا عن البناء ، كما هو اغتراب عن الفعل والفعالية . تطرف في الادعاء وتعويض عن ضياع هويته . ولكن "ليس شمة من اختصارات نفسية لحل أزمة الهوية الا أن يكون في تحويل الانسان

(٥) ماري مادلين دافي ، " معرفة الذات " ص ٣٨

المسلوب الى كائن مكتمل الحياة " . في الوقت الذي يكون فيه الأناني كائنا أحادييا نسبيا مجتزأ ، يتكئ على المراعات ، لاعلى الفعل ، في اثبات الوجود وتأكيد الذات .

ب - التبعية والانمحاء : لايفهم من كلامنا في تسفيه الأنانية ، أننا نحقر قيمة الفرد ، أو أننا ندعو الى امتثاله وتسليمه السلبيين لآليات النظم الاجتماعية والقيم السائدة بل على النقيض من ذلك تماما ، كلما كانت هناك فاعليات متميزة كان التشارك اعمق وأمتن اذ لاينتج المجتمع شخصيات متكررة ، في مطلق الأحوال . ولايعني نبذ الأنانية ، أيضا ، الوصول الى التبعية فكلاهما (الأنانية والتبعية) تعبير عن حالة واحدة هي الانمحاء ، انمحاء الشخصية وعدم تحقيق الذات الفعلية . ففي حين تكون الأنانية تبعية لنقاط الضعف وللأهواء الرخيصة في النفس ، تكون التبعية للآخر أنانية ضيقة ورخيصة أيضا . تؤثر الأمان الانضوائي ، وتمايز بين حقيقة الانسان الفردي - النوعي وحقيقة الفرد ، وبالتالي ، الانسلاخ (الاغتراب) عن الجوهر الانساني الفعلية .

وكلاهما أيضا (التبعية والأنانية) تعبير عن فقدان الحرية الحقيقية وتجسّد لإملاء قوى غريبة .

وليس خفيا ، من خلال نظرة فاحصة للمجتمعات العربية ، أن النزعات الأنانية قد استأثرت الانسان العربي المعاصر ، وذلك من نتائج الآثار الساحقة لظهور الاستهلاك المتزايد ، من جراء الانفتاح غير المتكافئ على الأسواق الرأسمالية ، أي أن الأنانية الاستهلاكية ، كنمطية للشخصية العربية اليوم هي نتيجة لتبعية عربية كولونية . كما أن التبعية ، في جوهرها منتج لأنانية طبقية مساومة لضمان مواقعها ومصالحها الخاصة . وهذا

(٦) أريك فروم ، " ثورة الأمل " ص ١٠٢

هو سر الاغتراب والتمزق المعاصرين ، بل هو عصر التفكك والالوهام والضياع ، ذلك " أن علاقة التبعية البنيوية للامبريالية تضع البرجوازية الكولونيالية في تمزق دائم بين ماهو وهمها الطبقي وماهو الواقع الفعلي لوجودها الطبقي . فبوهما الطبقي تنزع الى ذلك التماثل بالبرجوازية الامبريالية ، فينعكس هذا الوهم الذي هو - ان جاز التعبير - القوة المنتجة لايديولوجيتها ، بالتمثل الدائم بهذه البرجوازية التي تعجز عن التماثل بها . (٧) وفي تتبعنا لظاهرة الاغتراب في هذا السياق ، يمكننا أن نرصد حركة التبعية ، وفقا للآتي :

١ - التبعية الكولونيالية " الامتثال " للغرب الرأسمالي ، والانبهار به ، وهذا ما ندرسه في الاغتراب المكاني ، والعلاقة غير المتكافئة التي ينجم عنها مركز وتابع ، على شكل غزو ثقافي = ميترولوجي .

٢ - التبعية للماضي ، السلفية " التنسيقية " . وهذا ما ندرسه في الاغتراب الزمني وكما أن الاول انبهار فان الثاني تعتيم وانغلاق . ولاغرو أن الانبهار كالعتمة كلاهما يحجب الرؤية الفعلية للحاضر وامكاناته . واذا ما كان النسوع الأول " الامتثال " ميلا الى الغرب اغترابا فان النوع الثاني ، الماضي ، (الذي يرى الحاضر بمنظور الماضي) ، بالعكس ، يكون " اغترابا " كما يسميه العروي (٨) ، ويخلص الى القول : " علينا أن نقرر أن الاغتراب أسوأ وأخط نوعا من أنواع الاستلاب وان الحملة ضد الاغتراب القائمة على التعميم غير المنطقي والجهل بحقائق الخصم والتي لم تنبئ على أي قاعدة قارة ، ماهي الامحولة للتغطية على

(٧) مهدي عامل ، " أزمة حضارة أم أزمة

البرجوازية العربية ؟ " ص ١٦٩

(٨) عبد الله العروي ، العرب والفكر التاريخي ص ٢٠٤

تأخرنا الثقافي المتزايد . لقد حان الوقت أن نقول : ان ثمن هذه الحملة مرتفع جدا زمان ضائع ، تخلف مركبه هزائم متوالية كبيرة وصغيرة ، مكشوفة ومستورة ، وأخيرا انعماس في اللاتاريخ " (٩) فاذا كان الاغتراب أيضا ، تبعية وتقليدا للماضي فان الاغتراب أيضا ، تبعية وتقليد . وفي كليهما اغتراب عن الفعل والفعالية ، من حيث المصطلح موضع التناول .

غير أن هذا لا معنى له ، فيما يبدو ان لم نتبين بواعث المتجسدة في الاتجاهين والاتجاهان لا يعنيان ، في الوقت عينه ، التقابل . وانما هما وجهان لحقيقة وحيدة فمثلا هما ، في جوهرهما ، تغيب للفعالية الانسانية ، هما كذلك في منشئتهما عين بؤرة واحدة ، قوامها طبيعة البرجوازية الصغيرة ، من موقعها الطبقي - السلطوي السياسي ، وتبعيتها ، بروح المساومة لغايات أنانية ضيقة ، فيما يخص الواقع العربي . فكيف يمكن للذات الفردية أن تؤكد وجودها والفرد الانساني في المجتمع العربي منفي بواسطة السلطة والقهر اللذين هما في أغلب الاحوال سياسيان ، وحياته النفسية سلبية في أساسها ، وهو مبعد عن مسؤولية اتخاذ القرارات ، وموجه الى الاستهلاك من جراء الاشار الساحقة للسلطة ؟ (١٠) بهذا فقد فقد العربي " كل أهميته (ان كان له منها شيء علي الاطلاق) " (١١) ثم " ان بزوغ المجتمع الاستهلاكي خلال العقد الاخير قد أدى الى تدهور الموقف ، ولربما يكون قد عجل بتبلور مبسر لشروط " التشيؤ " (١٢) وهذه بعض من ملامح صيرورة المجتمع الاستهلاكي ، من قبيل الأنانية الضيقة ، التناحر ، والسعي الى خلق

(٩) عبد الله العروي " العرب والفكر التاريخي " ص ٢١١

(١٠) هشام شرابي ، ندوة " العقد العربي القادم :

المستقبلات البديلة " كمال أبو ديب مقال

بعنوان الابداع الثقافي في مجتمع مجزأ ص ٢٢٣-٢٢٤

(١١) - (١٢) السابق ص ٢٢٤

ومثل هذه التبعية تتجسد بين أفراد المجتمع، مثلما هي متجسدة بين المجتمعات العربية في تبعيتها الكولونيالية، مما أدى إلى تصدع جوهري للكلية الاجتماعية وتشكل طبقات واضحة وبالمقابل، كان التصدع ذاته على مستوى الذات الانسانية الواحدة . والسمة الاساسية، لكل من الذات والبنية الاجتماعية، هي الازدواجية والتبعية والانحاء .

ولما كانت البرجوازية الصغيرة غير واضحة الانتماء، قلقه، وزئبقية، فقد ترتب على ذلك فقدان التشكل الطبقي أو فقدان الرؤية، فكان التجزؤ على نطاق الشعر انعكاسا نوعيا لما هو معيش من تجزؤ حياتي انساني. حالات من التشظي ومحاولات قلقه دائمة من التجريب غير المستقر أو دونما أسس . ولعل ذلك يعود إلى ان حركية الشعرية العربية الحديثة، كانت وما تزال، في أغلبيتها على أيدي المثقفين من البرجوازية الصغيرة . ولما كان الشعر الاصيل كأي فكر أصيل - ثورة على التجزؤ كان - الانفصال القاطع بين المفكر وبين الحاكم، هو القاعدة التي يسير عليها تاريخ البشرية حتى عصرنا الحاضر" (١٣) بيد أن الشعراء المعاصرين، في اغترابهم الاكيد، أمام منهجين:

- ١ - المنطوي (الانطوائي) والانكسار، ليس أمام الحاكم وانعدام المكانة وقوة البطش فحسب، بل في انعدام قيمة الشعر ومكانته ازاء نمط جديد من الحياة الاستهلاكية .
- ٢ - المنضوي (الانضوائي) تحت راية السلطة، رهبة من بطشها، أو رغبة بعطاياها أو مغالطة للنفس بثورة مزعومة، فهو في كل

حالة وباعث، مغترب، بمعنى من معاني

الاغتراب

وبهذا نجد أن انحاء الشخصية العربية (على مستوى الفرد والمجتمع) ، يتطلب، بوضوح، في مختلف العلاقات البطيركية - العشائرية - الدينية القائمة، وفي التبعية والامتثال لقوى خارجية تحاصره وتستلبه من ذاته "في كل مجال من مجالات الحياة يجد الانسان العربي مبدأ الطاعة مفروضا عليه يدفعه إلى المسيرة والخضوع والاستسلام ويقضي على كل امكانات التفرد والتمرد في شخصيته" (١٤) ويمكن بنتيجة هذه التربية والمعايير البرجوازية وتوجهاتها السلبية الاستهلاك والتعالي اللذين يبعدان صاحبهما عن الاغتناء الروحي، عن سياق العمل الجماعي وعن شراء التواصل، ذلك الانسان الذي يبري معيار وجوده في متع الحس وفي تجديد هذه المتع وفي استهلاك السلع واستهلاك ذاته أيضا . ذلك الذي يعمل على أن يفقد ذاكرته وان ينسى ماهيته الحقيقية وسط الصخب والضجيج، ذلك الذي يملأ شعوره بالاشياء الصغيرة بدل أن يجعل من هذا الشعور صخا ويقظة" (١٥) .

وماتراني بحاجة للقول، في الحائنا الدائم على العلاقة الديالكتيكية بين الانسان - الفرد والانسان - النوع "المجتمع" أن مانقوله عن البنية الاجتماعية ينطبق على الذات الشخصية، وما نقوله عن الذات ينطبق على المجتمع، بدينامية متفاعلة، من حيث الأطر العامة لكليهما (الانسان والمجتمع) ، على خلاف الدرجة والنوع بينهما ليس على غرار الحتمية الالكية، وانما بجولية العلاقة (حركة صراعها وكيفية ذلك)

(١٤) د. فؤاد زكريا، "خطاب إلى العقل العربي"

مقال بعنوان "مرض عربي اسمه الطاعة"

ص ٨٢ - ٨٣ وكذلك في "مجلة العربي" .

(١٥) أحمد حيدر "العطالة والتجاوز" ص ١٠٢ - ١٠٣

(١٣) مجلة "الفكر المعاصر" عدد ٤٣/ ١٩٦٨،

د. فؤاد زكريا، مقال بعنوان "نحو

عالم يحكمه الفكر" ص ٥

ولا ينبغي هذا أن يحمل النقيض بذور نقيضه بل يؤكد . ووجود النقيض ، بصورة تراكمية يؤدي الى تغير كيميائي - نوعي يكتسب خواص جديدة وقانونيات تحقق له وجودا جديدا واستقلالية نسبية . فالاعترا ب عن القيم السائدة بمعنى النضال ضد أشكال الاستغلال عامة موقف ايجابي ومناهضة الاعترا ب والتغرب السلبيين ، اعترا ب فاعل ، حين تكون هذه المناهضة مبنية على اسس فاعلة ، أي تتفهم علاقة الفرد بالنوع علاقة الذات الفعلية مابين الذات الشخصية والذات الاجتماعية - الانسانية تكون المناهضة ثورة أو ارهاصا بالثورة . في الوقت الذي يتحدد اعترا ب الفرد فيه ، مهما بلغ شأوه من التمرد فلن يتمكن من تحقيق شيء فاعل ذلك أن فهم العلاقة لا يكون فهما علميا - واقعيا ، وانما هو ضرب من الامنيات التي تجذب ، تبهر . . . وتخبو الى اخفاق . الاخفاق اعترا ب ، والادق تكريس له انه استغلال لقدرات الفرد عن جوهرها ودورها الفاعل الى اجتزاء يؤدي به الى خواء ، وانعدام لتحقيق الذات .

ان أبلغ استخدام لمصطلح "الاعترا ب" يمس جوهر الانسان العربي ، بصورة عامة ، هو النقيض الفعلي لتحقيق الذات . فاذ قلنا "بالانفصال" أو "بالتسليم" مع هيجل ، أو "بالانفصال عبر التسليم" مع ماركس أو بقية الاستخدامات الأخرى ، فاشنا نجد انها جميعا تؤول الى نقطة التقاء بينة ، قوامها أن الانسان العربي المفكر عموما ، والفنان على وجه التحديد ، يحس باعترا به عن المشاركة الفعالة في صنع القرارات المصيرية ، على الرغم من قدراته الخلاقة وتطلعاته الابداعية الحرة ، وبالأصح لهذه الاسباب يكون محاصرا ، منغيا ومغيبا ، ذلك لأن الحكومات الطبقية تؤثر المحافظة على مواقعها ، وتخشى التطلعات والتغيير . وان كنا نخص الفنان ، هنا ، والفنان الحق ، فمرد

ذلك الى طبيعة الفنان ذاتها ، بكامل خواصها وتخومها . من بنيته الفيزيولوجية - العصبية . . الى صدقه الفني في معانقه الموضوع ومعاشته في أعماقه ، الى رؤاه الاستكشافية ، ونفاذ ادراكه واحساسه المشف بالخطأ والخطر .

وفي الوقت نفسه ، لا تكتفي العقلية الطبقيية واليمينية بمحاصرة الفنان ، وانما تعتمد الى الهاء الناس عن الفن الاصيل والابداع الحق ، بل عن ماهيتهم الفعلية بترويج الفن الرخيص واغراءاته ، التي تسطح الانسان وتصرفه عن عملية الخلق ، باعتباره متذوقا متلقيا ومشاركا بالتالي لضرورة العمل الفني ، هذا من جانب . ومن جانب ثان يغدو الانسان كسولا نافذ الفعالية يؤثر أي أمر لا يحتاج الى اعمال الفكر . أي أنه يغدو متلقيا سلبيا ليس للفن فحسب ، بل لكل غزو ثقافي . وبالتالي ، تابعا ومغتربا عن ذاته المحققة . وكما أن الأمر لا يخلص ترويج الفن الرخيص ، بل ترويج سحر الاستهلاك والمخادع بصورة شمولية ، كتوجه برجوازي ، وكنمطية للحياة المعيشة ، فلا يجد الفنان الاصيل مكانا له في حركية هذه التشكيلة الاجتماعية ، التي لا ترى سوى القيم المادية ومفاهيم الربح والثروة والمصالح الخاصة ، وهذا ما يتنافى ، بالضرورة ، مع جوهر الفن والشعر الاصيلين .

ومثلما يكون ذلك متعارضا مع جوهر الفن ، هو كذلك في تعارضه مع جوهر الفنان الانساني ، من حيث ان كلا من الفن والفنان - الانسان هو كل لا يقبل الاجتزاء . ولما كان الشاعر الحق ارهف الناس في التحليق والتجاوز الى عالم التوحد مع العالم والاخرين ، فان القصيدة الحديثة تتوخى أن تكون كالأعضاء متماسكا . وهي غاية أي فن ، كما هي غاية انسانية بامتياز ، هي صفة انسانية أصلا ولكن ، ماذا يتبدى لنا في قراءة الواقع العربي ؟

في الجواب نقول، إضافة الى مذكرناه من تفاوتات وتناحر، اننا نجد، في بنية التفكير السائدة، أن الشائيات المتقابلة في انفصال حاد، من قبيل انفصال الفكر عن الواقع / انفصال الاستهلاك عن الانتاج / انفصال العمل الفكري عن العمل البدني / الروح عن الجسد / الرجل عن المرأة / المدينة عن الريف / وانفصال الذات عن الموضوع . الفرد عن النوع . الجزء عن الكل "مجموع الاجزاء" . هذه هي مأساة الثقافة العربية - الطبقية ، حالات من التشطي تفتت وحدة العالم والانسان و كليتيهما ، بسبب من غياب التفكير الجدلي أو تغيبه ، واغفال الواقع بايمانية حلولية : بمثابة غيبية تسليمية ، تزج الانسان وتفكيره في دائرة الفراغ والهواجس المرضية ، انها الثقافة الضريبة ، منها تزوده البرجوازية الصغيرة لشعوبها ، بغية الاستمرارية في حماية مصالحها الطبقية ، انها البؤرة الاساس التي تجعل الفرد مجتزأ ضائعاً . "وتحصر نشاطه في الصراع من أجل حماية الذاتيات المتنافية والمرابضة كل منها خلف متاريس ذهنية أكثر منها مادية ووهمية أكثر منها موضوعية ، تحرم من رؤية الخطر أكثر مما تحمي منه . (١٦) . الى ماذا نصل من خلال هذا الانفصال ؟ ان الانسان العربي ، بعلامحه الأعم اليوم انسان مجزأ . . نسبي وهامشي . . مغترب الفعل ومغترب الفعالية ، لذا يغلب عليه طابع التطرف والمواقف الانفعالية .

(١٦) د . برهان غليون ، اغتيال العقل " ص ٤١

(رفض الغرب وحصره في دائرة الاستعمار فحسب) مقابل (قدسية الماضي والانغماس الكلي بتقليده) ، أو العكس ، فهو قائم ايضاً موقف شائى ، على غرار كل الشائيات المجتزأة والسكونية : غرباً واعترا ب اغتراب ذلك أن في أي منحى منهما شمة غياب للفعل ، للحاضر ، للعقلانية ، وللابداع . وعلى نطاق الفرد ، يكون الامر ذاته في الحدود العامة ، فثمة تعبيران — نتيجة واحدة هما : التبعية (الشعوب بالدونية والتخلي ، والسلبية . .) أي التسليم ، والثاني الاحساس بالانا المتضخمة والتعالي والانفصال وفي نتيجة هذين المظهرين علاقة وحيدة ، تتجسد باغتراب الانسان الكلي . اذ في كليهما فقدان التوازن ، تفكك ، انعدام للذات الفعلية للشخصية الانسانية الانسان . ولما كان العمل هو الذي يؤكد وينمي القوى الجوهرية الكمنية ، فان التبعية والتعالي / التسليم والانفصال ، يؤكدان واقع التغرب ، ولما كان واقع التغرب ، كواقع طبقسي ، مستنبت في التاريخ ، فان التسليم لسياسته يؤدي الى الانفصال — الاغتراب . ويبقى السؤال ملحا : " ما العمل ؟ " . ان الاغتراب ، اذن مرآة للانكسار بين القائم والواجب ، الواقع والطموح وتدمير للذات الكبرى : (أي البنية الاجتماعية ، والفردية) . او هو بتعبير أدق : عدم توكيد الذات ، أو توكيدها بطرق مزيفة .

After seventy two meanings of alienation have been listed
 After mentioning 72 meanings of alienation which I came across through my
 readings, I'd like to say that the usage of these meanings is not so important
 as this is because the full acquisition of meanings is not in itself
 many lists but rather it lies in finding the motives which cause
 that; namely alienation.

Since alienation, as it is an abstraction, apprehends in itself
 only but also by what it is not, i.e. the essence of the human character,
 I came to a special notion to have I can have the concept of alienation
 defined to find the advantage of different philosophical attitudes. This is
 in fact not due of Eclecticism but rather it is an attempt to view our Arabic
 society.

Through finding the character: I identify the achieved with its real
 components can realize the reality of alienation so that we can relate it

By this method I think I refuted R. Schokht's attitude which stated
 that it is impossible to have a comprehension in definition of alienation.

It is a method, as Al Jahez says! we missed success may be, but we
 did not miss research,

المصادر و المراجع

- ١- حيدر، أحمد: "العطالة والتجاوز"،
 وزارة الثقافة - دمشق ط١ / ١٩٨٨
- ٢- دافي، ماري مادلين: "معرفة الذات"
 ترجمة تسيم نصير، دار عويدات - بيروت
 باريس ط٣ / ١٩٨٣
- ٣- زكريا، فؤاد (دكتور): "خطاب إلى العقل
 العربي"، سلسلة كتاب العربي - الكويت .
- ٤- شرابي، هشام (دكتور): "العقد العربي
 القادم: المستقبلات البديلة" مؤسسة الوحدة
 المغرب
- ٥- عامل، مهدي: "أزمة حضارة أم أزمة
 البرجوازية العربية" دار الفارابي- بيروت
 ط٣ / ١٩٨١
- ٦- السعوي، عبد الله: "العرب والفكر التاريخي"
 المركز الثقافي، الدار البيضاء، ط١ / ١٩٨٣
- ٧- غليون، بوهان (دكتور): "اغتيال العقل"
 دار التنوير - بيروت، ط١ / ١٩٨٥
- ٨- فروم، أريك: "الخوف من الحرية" ترجمة
 مجاهد عبد المنعم مجاهد- المؤسسة العربية
 للدراسات والنشر- ط١ / ١٩٧٢
- "ثورة الأمل" ترجمة ذوقان قرقوط، دار
 الآداب - بيروت - ط١ / ١٩٧٣
- ٩- ماركن، كارل: "مخطوطات ١٨٤٤"، ترجمة
 الياس مرقص، وزارة الثقافة - دمشق- ١٩٧٠
- الدوريات
- ١ - الفكر المعاصر: عدد ٤٠ / يونيو ١٩٦٨